

روح الإنسان السليمة



لو أنّ شجرة سلية الجذع سالمة الجذور تعرضت إلى بعض الحوادث فتساقطت ثمارها وتناثرت أوراقها أو بريت أغصانها أو عصف البرد بخضتها أو التهمت الطير ثمارها وأفسدتها، فإنّ ذلك أمر يدعو إلى الأسف ولكنه لا يدعو إلى القلق أبداً، لماذا؟ لأنّ جذعها سالم ولذا فهي ستورق من جديد وستعود إليها خضرتها مرة أخرى، ثم تكتظ بالثمار ملقة طلالها الوارفة من جديد، وما دام الأمر كذلك فإنّ من حقّ الإنسان أن يشعر بالأمل.

إنّ الوجود يشبه إلى حدّ بعيد شجرة مثمرة، فإنّ كانت سالمة من العيوب كانت نضرة قوية تهب الخضرة والثمار وتلقي بطلالها الوارفة على الطريق فيستريح عندها العابرون ويتفاون طلالها بعد أن أحرقتهم حرارة الشمس، ولكن هذه الشجرة قد تتعرض لبعض الحوادث من قبيل عيش الأطفال فتذهب تلك المعاناة في رعايتها أدراج الرياح.

وهكذا الإنسان يعاني ويتآلم سنوات طويلة لكي يعدّ نفسه ويكون حياته وإذا كلّ ذلك يذهب في لحظة واحدة في ضربة من ضربات القدر يجعل منه بائساً فقيراً، ذلك لأنّ متع الحياة الدنيا معرض لآلاف الآفاق كالغرق والحرق والخطف وغيرها. وبالرغم من أنّ كلّ ذلك يبعث على الأسى، ولكنه لا يدعو إلى القلق خاصّة بالنسبة لأولئك الذين يتمتعون بالروح القوية والأمل.

إنّ الجسم السليم الذي يخضع لجراحة ما لا يدعو إلى القلق لأنّه يملك استعداداً ذاتياً على التئام أنسجته، يعكس الجسم الذي يعاني من مرض السكري - مثلاً - فإنّ الجراحة هنا أمر يصعب علاجه وتجنب أخطاره، ولذا فهو يدعو إلى القلق، ذلك أنّ أدنى جرح بسيط يستغرق وقتاً طويلاً للتئامه.

إنّ الإنسان الذي يتمتع بالمعنويات العالمية وبالأمل يمكنه أن يجبر كلّ كسر يتعرض له، غير أنّ الطامة الكبيرة تحلّ فيما إذا تعرض الجذر نفسه للآفات، وإذن فلن يبقى للخضرة والثمار من أثر.

لو أصيب الإنسان - لا سمح الله - في روحه وقلبه وذبلت عواطفه وأحاسيسه، وأصبح ساخطاً على الناس متشائماً منهم، ورأى نفسه وحيداً دون سند ومعين، إنّ مثل هذا الإنسان سيكون عديم النفع لنفسه

وللآخرين، وعندما يتساوى موتهم بحياته.

وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بالخسران المبين، وهم أولئك الذين خسروا أنفسهم وأرواحهم، فليس بهم أن يخسر الإنسان بعض ثمار حياته ولكن الخسارة الكبرى أن يخسر الإنسان الأمل والرجاء، والأكبر من ذلك أن يخسر الإنسان الإيمان الذي هو نبع الأمل، ذلك أن الإيمان يصنع التوكل والاعتماد والأمل.

إنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ لَا يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ وَحْيَدًاٌ أَبْدًاٌ وَهُوَ يَرْدِدُ دَائِمًاٌ : (إِيَّاكَ رَبَّنَا وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وَ(رَبَّنَا إِلَّا أَنْتَ كَانَتْ تَوْكِيدَنَا وَإِلَّا يَكُونَ أَزْيَادَنَا وَإِلَّا يَكُونَ الْمَصِيرُ) (المتحنة/4). فالمؤمن يتأثر للحوادث ولكنه لا يتزعزع أبداً ولا يشعر بالقلق، ذلك أن مصا به ليس في دينه وإيمانه وعقيدته.

قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: (فُلْ إِنْمَا أَرَى بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيْهِ أَرْمَمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِرَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف/110).

إنَّ الإِيمَانَ وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَمْنَحُ الْإِنْسَانَ الْأَمْلَ وَيَهْبِطُ الْرَّجَاءَ فِي إِنْهٰهِ يَقْفَ بِوْجَهِ يَعْنَ الْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ وَيَمْنَحُ مِنْ نَوْهٍ هُوَ، ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَحْدِهُ الْأَمَانِي، حِيثُ تَمُوجُ فِي أَعْمَاقِهِ الْأَمَانِي الْمَحَالِ، فَقَدْ يَتَمَنَّ أَنَّ تَلُكَ الْحَادِثَةَ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ فِيمَا مَضَى لَمْ تَقْعُ أَبْدًاٌ أَوْ يَتَمَنَّ وَقْوَعَهَا عَلَى نَحْوِ آخَرَ، أَوْ يَتَمَنَّ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ أَيَّامُ الشَّابِ أَوْ أَنْهٰهُ كَانَ مِنْ أَسْرَةِ فَلَانَ أَوْ مِنْ عَائِلَةِ الْفَلَانِيِّ.

وَمِنْ هَنَا نَعْرِفُ أَنَّ الْأَمَانِي لَا تَخْصُصُ لِلْمَنْطَقِ وَلَا تَنْقَادُ لِقَانُونِ الْعُقْلِ وَالْفَكْرِ، وَلَذَا يَنْبَغِي إِصْلَاحُهَا وَإِخْضَاعُهَا لِقَاعِدَةِ الْمَنْطَقِ.

إِنَّ هَذِهِ الْأَمَالَ الْوَهْمِيَّةَ الَّتِي يَعْبُرُ عَنْهَا الْدِينُ بِأَمَانِي الْبَسْتَانِيِّ الْمُنْتَهِيَّةِ الْمُنْتَهِيَّةِ هَبَاءً مَنْثُورًا، فَيَسْتَهْلِكُ وَقْتَهُ وَفَكْرَهُ فِي الْخَيَالِ.

وَهُنَا يَنْسَبُ مَثَلُ الشَّجَرَةِ أَيْضًاٌ، إِذْ تَبَرُّزُ ضَرُورَةُ الْبَسْتَانِيِّ الَّذِي يَرْعَاهَا إِذْ لَا يَقْتَصِرُ عَمَلُهُ عَلَى سَقْيِهَا وَحْمَا يَتَهَبَّهَا مِنَ الْآفَاتِ فَقُطِّعَ بَلْ يَتَعَدَّ ذَلِكَ إِلَى تَشْذِيبِ أَغْصَانِهَا إِذْ يَقْطَعُ مَا يَرَاهُ زَائِدًاٌ مِنَ أَغْصَانِهَا لَكِي لَا تَسْتَهْلِكَ طَاقَتُهَا فِي نَمَوِ الْأَغْصَانِ الَّتِي لَا طَائِلُ مِنْ وَرَائِهَا.

الْإِنْسَانُ هُوَ الْآخَرُ يَزْخُرُ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَسْتَهْلِكُ فَكْرَهُ وَعُمْرَهُ تَمَامًاٌ مُثْلِ الْأَغْصَانِ الْزَائِدَةِ الَّتِي يَعْمَدُ الْبَسْتَانِيَّ إِلَى التَّلْخُومِ مِنْهَا وَالْإِبْقاءِ عَلَى الْأَغْصَانِ الْمَكْتُظَةِ بِالثَّمَارِ.

وَلَهُذَا فَإِنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكْافِحْ وَيَتَخلَّمْ مِنْ أَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ ذَلِكَ أَنَّهَا مُجَرَّدُ أَوْهَامٍ شَيْطَانِيَّةٍ فَارِغَةٍ.

قَالَ تَعَالَى: (وَمَا يَعِدُهُمُ اللَّهُ يَطَّافُونُ إِلَّا غُرُورٌ) (النِّسَاءِ / 12).

المصدر: كتاب سلوك وأخلاق الإسلام